الفصل الثانى

الزنادقة فى عصر العباسيين

قلنا أن الزندقة بمعانيها المختلفة قد راجت وانتشرت انتشاراً واسعاً خلال هذا العصر ، وكان للخلفاء العباسيين موقفهم تجاه الزنادقة على اختلاف أشكالهم ، ولم يكن موقف أو سياسة الخلفاء العباسيين تجاه الزنادقة واحد بل كانت تتفاوت هذه السياسة من خليفة لآخر ، على حسب ميولهم وسياستهم كما كانت سياسة الخلفاء معهم مرتبطة بالأحوال الداخلية للدولة الإسلامية من حيث الاستقرار أو عدمه ، ولهذا اختلفت سياسة الخلفاء العباسيين مع الزنادقة من فترة لأخرى ، وسوف نفرد كل خليفة بحديث مستقل .

أولاً - الزنادقة فى عهد السفاح (١٣٢ - ١٣٦ هـ) :

يعتبر عصر السفاح بداية مرحلة جديدة من مراحل تكوين الدولة الإسلامية وهى مرحلة من الصعوبة بمكان بسبب تدهور أحوال البلاد على أثر سقوط الدولة الأموية ، وقيام الدولة العباسية ، وتولى أبو العباس السفاح حكم البلاد وهى تموج بالفتن والاضطرابات وتشتعل بالفتن والثورات ، ولهذا تطلبت هذه الفترة من العباسيين فرض القوة والسيطرة لكى تحكم سيطرتها على البلاد ، ولهذا نرى أول خلفائها يخطب فى الناس ويختم خطبته بنعت نفسه فى أول خطبة خطبها بأنه السفاح المبيح والثائر المبير(١) نظراً لما قام به من سفك دماء الأمويين وغيرهم من الخارجين على الدولة خلال تلك الفترة ، ويؤكد الإمام السيوطى أن السفاح كان سريعاً إلى سفك الدماء وأتبعه فى ذلك عماله فى المشرق والمغرب وكان مع ذلك جواداً بالمال(٢) .

ومن هنا نجد أن المصادر لم تشر إلى وجود زنادقة فى عصره أو إلى

---

(١) الطبري - تاريخ الرسل والملوك ، وابن الأثير - الكامل ٤/ ٥٧٧ ، والسيوطي - تاريخ الخلفاء ص٢٥٧ .

(٢) تاريخ الخلفاء ص٢٥٩ .

محاربتهم ، ولعل هذا فى نظرنا يرجع إلى صعوبة الفترة التى كانت تمر بها البلاد وانصراف الخليفة إلى إرساء دعائم الدولة الناهضة وهو فى أشد الحاجة إلى تأليف القلوب وجمع الصف وتوحيد القوة المعادية له واستمالة الفرس الذين ساعدوهم فى إقامة الدولة إلى جانبهم ليستعين بهم فى تثبيت أركان الدولة ، ومن ثم فلم يظهر الفرس أى عداوة للعباسيين ولم نسمع عن قيامهم بحركات هدامة ضد الدولة فى عصر السفاح .

ويصرح بعض الباحثين بوجود زنادقة فى عصر السفاح ولكن الخليفة غفل عنهم وتهاون فى أمرهم نظراً لما للفرس من الفضل والجهد فى نجاح دعوتهم .

ومن أدلة إغفاله إياهم عدم تعرضه بالعقاب لمشاهير الزنادقة الذين كانوا يعملون على تشويه الدين عن طريق الأدب والحكمة والشعر مثل الحمادين الثلاثة حماد الروية وحماد عجرد وحماد الزبرقان وابن المقفع وبشار بن برد[١] .

ونحن نرى أن اغفاله لأمثال هؤلاء لم يكن عن عمد منه بل لعدم وجود الأدلة التى تشهد على إدانتهم وإقامة الحجة عليهم والاتهام مع عدم توافر الأدلة إدعاء لا قيمة له ، هذا بالإضافة إلى عدم جهرهم بالزندقة وإخفاءهم لها دعاه إلى تركهم .

ثانيا- الزنادقة فى عصر المنصور (١٣٦-١٥٨م) :

أما فى عهد المنصور فنرى أن الزنادقة قد ظهروا بصورة غير واضحة على الساحة ولاحت فى الأفق القريب رزائلهم وفساد دينهم ولكنهم كانوا قلة ناشئة بحيث أنها لم تمثل خطراً على العباسيين ولم تلفت أنظارهم ، ولهذا لم يوجه المنصور عنايته أو اهتمامه بهم ولم يصرف جهوده إلى اضطهادهم وإنما اكتفى بوضع كتب لكشف شبهاتهم وإبطال مزاعمهم الكاذبة[٢] ، ولكننا نلمح فى وصيته لابنه المهدى ذكراً للزنادقة والملحدين حيث يأمره بالشدة عليهم فيقول فى وصيته : واعلم أن من شدة غضب الله لسلطانه أنه أمر فى كتابه بتضعيف العذاب والعقاب على من سعى فى

---

(١) طه حسن حماد - الزندقة في العصر العباسي ص١٤٦ .

(٢) الإمام محمد عبده - رسالة التوحيد ص١٥ .

الأرض فساداً مع ما ذخر له عنده من العذاب فقال سبحانه ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾(١) .

فالسلطان يابنى حبل الله المتين وعروته الوثقى ودينه القيم فاحفظه وحصنه وذب عنه وأوقع بالملحدين فيه وأقمع المارقين منه واقتل الخارجين عنه بالعقاب ولا تجاوز ما أمر الله به فى محكم القرآن واحكم بالعدل ولا تشطط(٢) .

ولما كانت الزنادقة مبغضة إلى نفوس المسلمين ولاسيما المؤمنين منهم فقد أصبح كل من يقترب من الزنادقة أو يخالطهم منبوذاً ومكروهاً من طبقات المجتمع الإسلامى كله ، ولعل هذا يفسر لنا عمل الخليفة المنصور مع محمد بن أبى العباس عندما أراد أن يبغضه إلى الناس ويفقدهم الثقة فيه لأنه كان مرشحاً للخلافة بعد المنصور فأحاطه بالزنادقة والمجان وكان فيهم حماد عجرد وكان محمد بن العباس مرشحاً للخلافة بعد المنصور ، بينما كان المنصور يرغب فى ترشيح ابنه المهدى .

ثالثاً.فى عصر المهدى (١٥٨.١٦٩هـ) :

أما فى عهد المهدى فقد ظهر الزنادقة بصورة واضحة وظهرت نواياهم السيئة فى السعى إلى إفساد العقيدة الإسلامية وتشويهها عند عامة الناس وراحوا ينفثون سمومهم بين الناس ، فأخذ المهدى بوصية أبيه المنصور وطبقها أحسن تطبيق فوجه جهوده إلى القضاء على الزنادقة فتتبعهم فى كل مكان وقعد لهم فى كل مرصد حتى أفنى منهم خلقاً كثيراً(٣) .

ويصفه الفخرى وصفاً دقيقاً فيقول عنه (وكان المهدى فطناً كريماً شديداً على أهل الإلحاد والزندقة ، لا تأخذه فى إهلاكهم لومة لائم)(٤) .

---

(١) سورة المائدة آية : ٣٣ .

(٢) الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ٨/ ١٠٥ ، ولم الأثير ـ الكامل ٥/ ٨٦ ، وكرد علي ـ الحضارة العربية ٢/ ١٣١ .

(٣) السيوطي ـ تاريخ الخلفاء ص ٢٧١ .

(٤) الفخري في الآداب السلطانية ص ١٧٩ .

وكان المهدى على الرغم من تنكيله بالزنادقة والبحث عنهم كان لا يأخذ بالظن فى الاتهام بالزندقة وإنما كان يقيم البينة على من رمى بها فيحاوره ثم يستتابه ، فإن تاب تركه وإلا ضرب عنقه .

فيذكر اليعقوبى أنه ألح فى طلب الزنادقة وقتلهم حتى قتل خلقاً كثيراً فبلغه أن صالح بن أبى عبيد الله زنديق فأحضره ، فلما صح عنده أمره أن يتوب فقال لا رغبة عما أنا عليه ولا حاجة فى غيره فأمر بضرب عنقه(١) .

كما أتى بصالح بن عبد القدوس فاستتابه فتاب فلما خرج من عنده ذكر له قوله :

والشيخ لا يترك أخلاقه ... حتى يوارى فى الثرى رمسه

فأمر برده وضرب عنقه(٢) .

ومن مظاهر اهتمام المهدى فى الجد والبحث عن الزنادقة واستأصل شأفتهم أنه أنشأ جهة مختصة وأوكل إليها مهمة البحث عن الزنادقة فى أى مكان كانوا ، وكان لهم رئيس يسمى صاحب الزنادقة ، وقد صرح الطبرى بأن المهدى جد فى طلب الزنادقة والبحث عنهم فى الآفاق وقتلهم وولى أمرهم عمر الكلواذى ، فلما توفى ولى مكانه حمزوية محمد بن موسى وكان ذلك فى عام ١٦٨ هـ(٣) .

وكما خصص المهدى إدارة للبحث عنهم فى كل الآفاق فقد أوجد لهم حبساً خاصاً لا يحبسون فيه مع غيرهم حتى لا يلقنون غيرهم أفكارهم ، كما خصص لهم رجالاً من أهل البحث من المتكلمين وأمرهم بتصنيف الكتب للرد على الملحدين(٤) .

وصفوة القول أن عمل المهدى تجاه الزنادقة فى عصره تمثل فى أمرين :

الأول : إنشاء إدارة مختصة بالبحث عنهم ومحاكمتهم .

الثانى تشكيل هيئة علمية من المتكلمين لمناظرتهم والرد عليهم .

---

(١) تاريخ اليعقوبي ٢/ ٢٨٠ . (٢) المصدر السابق ٢/ ٢٨١ .

(٣) الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ٨/ ١٦٥ .

(٤) عبد المنعم ماجد ـ العصر العباسي الأول ١/ ١٦٦ ، وأحمد أمين ـ ضحى الإسلام ١/ ١٤٥ .

وقد تجرد بالفعل كثير من العلماء للرد على الزنادقة ودحض شبهاتهم الواهية ، فالإمام أحمد بن حنبل ممن ناقش الزنادقة فى آرائهم ورد عليهم وكذلك واصل بن عطاء الذى درس كتبهم بدقة وتمحيص فوجدها أكاذيب ومزاعم وضلالات لا فائدة منها علمياً ولا دينياً(١) .

ومع هذه العناية الفائقة والاهتمام البالغ فى قمع الزنادقة واستأصل شأفتهم فقد وجدنا من الباحثين من يتهمه بالتستر على الزنادقة والتراخى معهم .

ويرجع الباحث أسباب تغافل المهدى عن بعضهم ، إما لوجود عامل القرابة والصلة بينهم أو لاعتبارات سياسية تمليها عليه سياسة الدولة(٢) .

وهو رأى نراه شديد الوطئة والتحامل على الخليفة المهدى وهو الخليفة الذى أجمع المؤرخون على حُسن سيرته واعتدال سياسته مع الرعية ، فهو أول من جلس للمظالم من بنى العباس يقيم العدل بين المتظالمين وأول من أ ـر بترك المقاصير التى فى جوامع الإسلام وقصر المنابر وصيرها على مقدار منبر الرسول ﷺ (٣) .

فهو لم يتغافل عن الزنادقة أو تهاون معهم وإنما تركه لبعضهم يرجع إلى عدم ثبوت إدانتهم بهذه التهمة أو أن الشبهات قد حامت حولهم بدون دليل قاطع أو برهان ساطع فتركهم لحين توافر الأدلة وإقامة البينة عليهم .

رابعاً ـ المتهمون بالزندقة فى عصره :

اتهم كثير من الشعراء والمجان فى عصر الخليفة المهدى بالزندقة ، وأصبحت هذه التهمة متداولة على ألسنة العامة والخاصة ووسط المجالس والمنتديات ، ومن الحق أن نقول إن بعض المتهمين بها كانوا من الأبرياء الذين استبرءوا لدينهم وعرضهم وبعضهم كان زنديقاً بحق ، فالتهمة لا تثبت على صاحبها لمجرد اتهامه بل بعد إقامة الأدلة ووجود القرائن التى تدل على ذلك ، فالمتهم برىء حتى تثبت إدانته .

ويعد بشار بن برد من الزنادقة المشهورين فى عصر المهدى أو ممن اتهموا

---

(١) ابن الجوزي ـ تلبيس إبليس ص١١١ ، وعبد المنعم ماجد ـ العصر العباسي الأول ١/ ١٦٧ .

(٢) طه حسن حماد ـ الزندقة في العصر العباسي ص٦٧ .

(٣) السيوطي ـ تاريخ الخلفاء ص٢٧٣ .

بالزندقة نتيجة أقوال خرجت منه أو أفعال صدرت عنه على سبيل الجد أو الهزل فكان يصدر منه مابين الحين والآخر أقوالاً تمس الدين من قريب أو بعيد وتدل على عدم صحة عقيدته ، فهو مهموز فى عقيدته بسبب انتسابه إلى فرقة تسمى الكاملية[١] كانت تكفر الصحابة بتركهم بيعة علىّ وكفروا علىّ بتركه قتالهم وقالوا كان يلزمه قتالهم كما لزمه قتال أصحاب صفين[٢] .

وكان بشار الشاعر الأعمى على هذا المذهب ، وروى عنه أنه قيل له ماتقول فى الصحابة ؟ قال : كفروا ، فقيل له : ما تقول فى علىّ فتمثل قول الشاعر :

وما شر الثلاثة أم عمرو بصاحبك الذى لا تصبحينا[٣]

وكقوله الذى يدل على ميله إلى الإلحاد :

طبعت على مافى غير مخير هواى ولو خيرت كنت المهذبا

أريد فلا أعطى وأعطى ولم أرد وقصر علمى أن أنال المغيبا[٤]

ويذكر مؤرخى الملل والنحل .. أن بشار ممن قال بتكفير الصحابة بل أنه زاد فى ضلاله وغيه ففاق الكاملية بضلالتين :

الأولى : قوله برجعته إلى الدنيا قبل يوم القيامة كما ذهب إليه أصحاب الرجعة من الرافضة .

الثانية : قوله بتصويب إبليس فى تفضيل النار على الأرض واستدلوا على ذلك من شعره[٥] .

فهو القائل :

والأرض مظلمة والنار مشرقة والنار معبودة مذ كانت النار[٦]

---

(١) تنسب هذه الفرقة إلى أبي كامل رجل من الرافضة .

(٢) صفين ـ موضع بقرب الرقة على شاطىء الفرات من الجانب الغربي بين الرقة وبالس كانت به موقعة صفين بين علىّ ومعاوية سنة ٣٧ هـ .

(٣) البغدادي ـ الفرق بين الفرق ص٣٥ .

(٤) الأصفهاني ـ الأغاني ٣/ ١٧٩ .

(٥) البغدادي ـ الفرق بين الفرق ص٣٥ .

(٦) الأصفهاني ـ الأغاني ٣/ ١٣٦ . وابن كثير ـ البداية والنهاية ١٠/ ١٥٢ .

وقد ردَّ عليه صفوان الأنصارى بقصيدة قال فيها :

زعمت أن النار أكرم عنصراً ... فى الأرض تحيا فى الحجارة والزند
ويخلق فى أرجائها وأرومها ... أعاجيب لا تُحصى بخط ولا عقد

إلى أن قال :

فيابن حليف الشؤم واللؤم والعمى ... وابعد خلق الله من طرق الرشد
اتهجوا ابابكر وتخلع بعده ... علياً وتغزو كل ذاك إلى برد
كأنك غضبان على الدين كله ... وطالب دخل لا يبيت على حقد
تواثب أقماراً وأنت مشوه ... وأقرب خلق الله من نسب القرد[١]

فشخصية بشار بن برد متقلبة غير مستقرة على حال كثير التلون فى ولائه وفى معاملته ، غير معتدل فى الناحية المزاجية ، ثم هو بعد ذلك سريع التأثر بأترابه ظريف يهش للظرف والظرفاء .

يقول عنه الأصفهانى : كان بشار كثير التلون فى ولائه شديد الشغب والتعصب ، فتارة يتعصب للعرب وتارة يتبرأ من ولاء العرب ، فهو يقول :

أصبحت مولى ذى الجلال وبعضهم ... مولى العريب فخذ بفضلك فافخر
مولاك أكرم من تميم كلها ... أهل الفعال ومن قريش المشعر
فارجع إلى مولاك غير مدافع ... سبحان مولاك الأجل الأكبر[٢]

ولهذا اختلف الباحثون من المستشرقين فى زندقة بشار .

كما يعرف عن بشار أنه سليط اللسان كثير الهجاء وكان هجائه من أفزع ألوان الهجاء ، وكان إذا غضب استبد به غضبه إلى ارتكاب حماقات قد لا يحمد عقباها ، وما أصدق ما قيل أقبح أنواع الغضب غضب الأعمى .

كان بشار كثير الهجاء لمن عاداه ، فقد ظل على وفائه مع وزير المهدى يعقوب بن داود ، فلما تغيرت الأمور وساءت العلاقة بينهما سارع بشار إلى هجائه والانتقاص منه ، فعندما تولى صالح بن داود أخو الوزير يعقوب أمر

---

(١) البغدادي ـ الفرق بين الفرق ص٣٥ .
(٢) الأغاني ـ ٣/ ١٣٣ .

البصرة قال بشار :

همو حملوا فوق المنابر صالحاً أخاك فضجت من أخيك المنابر[١]

بل وشرع فى هجاء الوزير نفسه حيث قال فيه :

بنى أمية هبوا طال نومكموا إن الخليفة يعقوب بن داود

ضاعت خلافتكم ياقوم فالتمسوا خليفة الله بين الناى والعود[٢]

مما أوغر عليه صدر يعقوب بن داود ووشى به عند الخليفة .

ويذكر الأصفهانى أنه هجا الخليفة نفسه بشعر نال فيه من شرفه وعرضه مما قال :

خليفة يزنى بعماته ويلعب بالدبوق والصولجان

أبدلنا الله به غيره ودس موسى فى حر الخيزران[٣]

عند ذلك أمر المهدى عبد الجبار صاحب الزنادقة أن يضرب حتى يموت[٤] .

ونظراً للتناقض الواضح فى سلوك هذا الشاعر الفحل وفى حقيقة ما صدر عنه وتحدث به فقد اختلف الباحثون فى زندقته .

فالبعض ذهب إلى القول بأنه كان مثالاً للزنادقة فى عصره لأنه شعوبى يحن إلى قومه ووطنه ويكره الإسلام[٥] .

بينما يذهب البعض الآخر إلى أنه كان من الطبقة الماجنة أو طبقة أحرار الرأى .

ويذهب الأستاذ ماجد إلى أنه لم يكن زنديقاً زندقة علمية وإنما كان فاسقاً ماجناً يشك فى كل شىء[٦] .

وهوالرأى الذى نميل إليه ونستريح له ونرجح أن بشاراً كان ظريفاً لم

---

(١) ابن الأثير ـ الكامل ٥/ ١٤٥ .

(٢) المصدر السابق ٣/ ٢٣٨ ، وابن كثير ـ البداية والنهاية ١٠/ ١٤٨ .

(٣) الخيزران هى جارية من جواري المهدي وهى أم ولديه موسى وهارون .

(٤) الأغاني ٣/ ٢٢٢ ، والطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ٨/ ١٨٠ .

(٥) نيكلسون ـ تاريخ العرب الأدبي ص٣٧٣ .

(٦) طه حماد ـ الزندقة في العصر العباسي الأول ص٧٢ .

يقصد الزندقة ، فأنت عندما تقرأ الأغانى تجده مملوءاً بالفكاهة والظرف المأثور عنه ، فتحس أنك أمام ماجن مازح وليس أمام زنديق ملحد .

ومن ذلك ما ذكره صاحب الأغانى أن قوماً ما مروا ببشار وهم يحملون جنازة ويسرعون المشى بها ، فقال مالهم يسرعون أتراهم سرقوه فهم يخافون أن يلحقوا فيؤخذ منهم .

ومن هنا رمى بالزندقة لتهاونه فى أمر دينه ..

ويروى عنه أنه كان ذات مرة ينادم المجان فقال لسعد بن القعقاع صديقه قد نسبنا الناس إلى الزندقة فهل لك أن تحج بنا حجة تنفى ذلك عنا .. قال نعم .. فاشتريا بعيرا وركباه ، فلما وصلا إلى زرارة[١] استبعد المسافة فنزلا بها ومكثا هناك يشربان الخمر ويفسقان ، واتفقا على أن يظلا بهذا المكان حتى يفرغ الحجيج من قضاء الفريضة فإذا عادوا إلى بلادهم خرجنا إليهم بعد أن نجز رؤوسنا فلا يشك الناس أننا جئنا من الحج ، وقد كان فقد تلقاهم الناس بالبشر والترحاب كأنهما حاجين .

فأنشد سعد يقول :

ألم ترنى وبشاراً حججنا ... وكان الحج من خير التجارة
خرجنا طالبى سفر بعيد ... فمل بنا الطريق إلى زرارة
فآب الناس قد حجوا وبروا ... وآبنا موقرين من الخسارة[٢]

وفى هذا ما يشير إلى صحة ما ذهبنا إليه من أن بشاراً لم يتزندق زندقة علمية وإنما كان كثير التهاون فى أمور دينه يشك فى كل شىء حوله .

وممن رمى بالزندقة فى عصر المهدى مطيع بن إياس ، فكثيراً ماكان يسىء إلى الإسلام بكلامه وأفعاله ، يقول عنه الأصفهانى أنه كان ظريفاً خليعاً حلو العشرة مليح النادرة ماجناً متهماً فى دينه بالزندقة[٣] .

ويُقال أنه كان يهوى الغلمان ويلوط بهم ويكذب وينافق مما كان سبباً فى رميه بالزندقة .

---

(١) زرارة ـ محلة بالكوفة كان يباع فيها الخمر ـ ياقوت الحموي ٣/ ١٣٨ .
(٢) الأصفهاني ـ الأغاني ٣/ ١٧٩ .
(٣) الأغاني ١٣/ ٢٨٠ .

ومما يؤيد وصفه بالزندقة أن ابنته شهدت عليه فى أيام الرشيد أنه كان يعلمها دين الزنادقة[١] .

ولكن الحكم القاطع بأنه كان زنديقاً لم تتوفر له الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة التى تقطع بالدلالة على إلحاده ، ويبدو أن إتيانه المنكرات واختلاطه بالزنادقة المعاصرين له أمثال ابن المقفع وحماد وعجرد وحماد الراوية وغيرهم ثم ميوله الدنيئة إلى الغلمان والصبية بالإضافة إلى فسقه وقلة دينه كان من دواعى رميه بالزندقة .

وممن رمى بالزندقة خلال تلك الفترة صالح بن عبد القدوس وهو عربى المنبت عريق النسب ، كانت له مجالس وعظ بالبصرة[٢] ، واشتهر بالتأليف والتصنيف ولكنه كان من جملة المنافقين الذين يظهرون خلاف ما يبطنون ، وقد عده ابن النديم[٣] من الرؤساء المتكلمين الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الزندقة وأن أكثر مصنفاته فى نصرة الاثنين[٤] ومذاهب أهلها .

وقد تصدى لصالح بن عبد القدوس بعض علماء المعتزلة لما شاع أمره وانتشرت كتبه فى نصرة الاثنين حيث ناظره أبو الهزيل العلاف[٥] ، فصالح كان يقول أن العالم من أصلين قديمين هما النور والظلمة وإنما امتزجا ، فقال له أبو الهزيل : فامتزاجهما أهو هما أم غيرهما ، قال : بل أقول هو هما فالزمه أن يكونا ممتزجين متباينين إذ لم يكن هناك معنى غيرهما ولم يرجع ذلك إلا إليهما فانقطع وأنشأ يقول :

أبا الهزيل جزاك الله من رجل فأنت حقاً لعمرى مفصل جدل[٦]

ولما ذيع أمره وانتشر طلب الخليفة المهدى أن يحمل إليه فأحضر بين يدى الخليفة فقال للمهدى : علام تقتلنى ؟ قال له على قولك :

---

(٤) المصدر السابق ١٣/ ٢٨٥ .

(٢) البصرة - إحدى مدن العراق العظيمة .

(٣) الفهرست ص٤٥٨ .

(٤) يقصد بالاثنين النار والظلمة ، حيث قال بهذا بعض المجوس وهم الثنوية .

(٥) هو شيخ المعتزلة ، أخذ الاعتزال عن عثمان بن خالد الطويل عن واصل بن عطاء ، وكان في الجدل ليس له نظير ، مات سنة ٢٢٧ هـ ، وقيل ٢٣٥ هـ .

(٦) ابن خلكان - وفيات الأعيان ٥/ ٣٧ .

رب سـر كتمتـه فكـأنى أخـرس لسـان عقـل
فـلو أنى أظهـرت للنـاس دينـى لـم يكـن لى فى غـير حبـس أكـل

فقـال صالح : لقـد كنت زنديقـاً ولكنى تبـت ، فقال لـه : كيف وأنت القـائل:

والشـيخ لا يتـرك أخـلاقه حـتى يـوارى فى ثـرى رمسـه
إذا ارعـوى عـاد إلى غيـه كـذا الصبى عـاد إلى نكسـه

ثـم رفـع المهـدى سيفه وضـربه بشـدة فوقـع أمامـه ثم دفـن[١] .

كمـا رمى بالزندقـة فى عهـد المهـدى يعقـوب بن الفضـل وابن داود بن عـلى وكـان المهـدى قـد جـاء بهـمـا إلى مجلسـه واجتـمـع بكـل منهـمـا على انفـراد وأقـرهمـا بالزندقـة فـأقـرا ، أمـا يعقـوب فـقـد اعتـرف لـه بهـا وقـال للمـهـدى ولكنى لا أظهـر ذلك للنـاس ولـو قرضتنى بالمقـاريض[٢] .

وقـد أمـر المهـدى بحـبـسـهـمـا ثـم التـفـت إلى مـوسـى الهـادى وأمـره ألا يناظرهما مـرة ثانيـة ، فمـات ابن داود بن عـلىّ فى الحبس فى حيـاة المهـدى ، أمـا يعـقـوب فقـد ظـل حتى تولى الهـادى الخـلافة ثـم أمـر أن يـؤتى بـه من الحـبس ويوضـع فى شـوال ـ وتقعـد عليـه الرجـال حـتى يمـوت ففعـل بـه مثلمـا أمـر الهـادى[٣] .

ولكن ما العـلة أن الخليفـة المهـدى لـم يشـرع فى قتلهـما على الفـور ولاسيما بعـد أن أقـرا بالزندقة بين يديـه .

والعـلة فى ذلك أن كـلا الرجلين يعقـوب وابن داود من بنى هاشـم هـذا البيت العـريق الذى يعـد من أشـرف الـقبـائل والبطـون ، فـخشى إن قـتلهما أن يـترتب على قـتلهـمـا آثـار غـيـر محـمـودة فى نفـوس بـنى هاشـم خـاصـة وفى نفـوس المسلميـن بصـفة عـامة ، وخـاصـة أنهـم لا يعلمـون عن اعترافـهما بالـزندقة عند الخليـفـة شـيـئـاً ، ولهـذا أسـند مـهمـة التخلص مـنهمـا إلـى الهـادى الذى قـام بتنفيـذ وصـية أبيـه على أكمـل صـورة .

---

(١) طـه حسـن حمـاد ـ الزندقة في العصـر العباسي الأول ص ١٨٠ .
(٢) الطبـري ـ تاريخ الرسـل والمـلوك ٨/ ١٩٠ .
(٣) المصـدر السـابق ٨/ ١٩١ .

خامساً ـ الزندقة في عصر الهادي:

كان للهدى كما رأينا شديد الاهتمام في البحث عن الزنادقة شديد التنكيل بهم ، ولهذا وصى ابنه الهادى من بعده بعد أن عهد إليه بالأمر أن يشتد على هذه العصابة وهم الزنادقة وأن يقطع دابرهم حتى لا يبق منهم أحد ، فجد الهادى في طلبهم وقتل منهم خلقاً كثيراً(١) .

ويذكر الطبرى وصية المهدى لابنه عندما قدم إليه زنديق فاستتابه فأبى أن يتوب فضرب عنقه وأمر بصلبه ثم قال يابنى إن صار لك هذا الأمر فتجرد لهذه العصابة (يعنى أصحاب مانى) فإنها فرقة تدعو الناس إلى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش والزهد فى الدنيا والعمل للآخرة ثم تخرجهم إلى تحريم اللحم ومس الماء الطهور وترك قتل الهوام تحرجاً وتحوباً ثم تخرجها من هذه إلى عبادة اثنين أحدهما النور والآخر الظلمة ، ثم تبيح بعد ذلك نكاح الأخوات والبنات والاغتسال بالبول وسرقة الأطفال من الطرق لتنقذهم من ضلال الظلمة إلى هداية النور فارفع فيها الخشب وجرد فيها السيف وتقرب بأمرها إلى الله لا شريك له ، فإنى رأيت جدك العباس فى المنام قلدنى بسيفين وأمرنى بقتل أصحاب الاثنين فقال موسى : بعد أن مضت من أيامه عشرة أشهر أما والله لئن عشت لأقتلن هذه الفرقة كلها حتى لا أترك منها عيناً تطرف(٢) .

وشرع الهادى فى تنفيذ وصية أبيه فتتبع الزنادقة فى كل مكان حتى قتل منهم خلقاً كثيراً(٣) .

وفى عام ١٦٩ اشتد الهادى فى طلب الزنادقة فقتل منهم جماعة لا بأس بها فكان ممن قتل منهم يزدان بن باذان كاتب يقطين وابنه علىّ بن يقطين من أهل النهروان(٤) .

وكان يزدان هذا من جملة الزنادقة الذين حاولوا فصل الدين عن عراه ،

---

(١) الإمام السيوطي ـ تاريخ الخلفاء ص٢٧٨ .

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٨/ ٢٢٠ .

(٣) ابن كثير ـ البداية والنهاية ١٠/ ١٥٩ ، والبلخي ـ البدء والتاريخ ٢/ ٢١٠ .

(٤) النهروان ـ كورة واسعة بين بغداد وواسط من الجانب الشرقي .

ومن ذلك أنه نظر إلى الناس فى موسم الحج وهم يطوفون فقال : ما أشبههم ببقر(١) تدوس فى البيدر(٢) .

فقال الشاعر فيه :

أيا آمين الله فى خلقه ... ووارث الكعبة والمنبر

ماذا ترى فى رجل كافر ... يشبه الكعبة بالبيدر

ويجعل الناس إذا ما سعوا ... حمراً تدوس البر والدوسر(٣)

وقال آخر :

قد مات مانى منذ اعصار ... وقد بدا يزدان بن ياذان

حج إلى البيت أبو خالد ... مخافة القتل أو العار

وود والله أبو خالد ... لو كانت بيت الله فى النار

لا يقتل الحيات فى دينه ... كفراً ولا العصفور فى الدار

وليس يؤذى الفأر فى حجره ... يقول روح الله فى الفأر(٤)

وقد سارع الهادى إلى قتله ثم صلبه بعد ذلك .

ويذكر الطبرى أن المهدى هيأ له ألف جزع(٥) لصلب الزنادقة عليها حتى يراهم الناس ، وقال هذا فى شهر كذا ومات بعد شهرين(٦) .

وخلف الهادى الرشيد (١٧٠ - ١٩٣ هـ) الذى عرف بالتقوى والصلاح ..

يقول عنه ابن طباطبا : كان الرشيد من أفاضل الخلفاء وفصحائهم وعلماتهم وكرمائهم ، كان يحج سنة ويغزو سنة ، كذلك مدة خلافته إلا سنين قليلة(٧) .

سار الرشيد فى التنكيل بالزنادقة وقمعهم سيرة المهدى وأخيه الهادى ،

---

(١) الطبري - تاريخ الرسل والملوك ٨/ ١٩٠ . والبلخي - البدء والتاريخ ٢/ ٢٩٠ .

(٢) مكان تجمع القمح ونحوه بعد دراسه ويسمى الجرن .

(٣) الدوسر - نبت حبة الزوان الذي في الحنطة .

(٤) البلخي - البدء والتاريخ ٢/ ٢٩٠ .

(٥) الجزع هو ساق النخلة ونحوها . والجمع : أجزاع وجزوع . (المعجم الوجيز ص٩٧) .

(٦) تاريخ الأمم والملوك ٨/ ٢٢١ .

(٧) الفخري في الآداب السلطانية ص١٩٣ .

فكان لا يقعد عن طلبهم ولا البحث عنهم حتى قتل منهم طائفة كثيرة[١] .

وتشير القرائن التاريخية إلى أن الرشيد منذ تولى أمر الخلافة كان عازماً على البطش بالزنادقة والتخلص منهم ، ففى عام ١٧٠ هـ بعد أن تولى الخلافة أمر الرشيد بسهم ذوى القربى فقسم بين بنى هاشم بالسوية وآمن الخائف ومن كان هارباً أو مستخفياً غير نفر من الزنادقة منهم يونس بن فروة ويزيد ابن الفيض[٢] .

ويحدثنا ابن النديم عن الزنادقة فى العصر العباسى فيذكر أن البرامكة بأسرهم كانوا منهم إلا محمد بن خالد بن برمك ، والحق أن التصريح بزندق البرامكة فى عهد الرشيد لم نرى له ذكر فى بطون المصادر الأخرى ، ويبدو أن اتهام البرامكة بالزندقة يرجع إلى أصلهم القديم ، إذ كان برمك وأسرته يدينون بالمجوسية دين الفرس ، وكان برمك هذا من سدنة بيت النار ، فلما ظهر الإسلام أسلم بعضهم وحسن إسلامه ، وقد أصبح البرامكة كعبة الآمال وتشد إليهم الرحال .

يقول عنهم ابن طباطبا : اعلم أن هذه الدولة كانت غرة فى جبهة الدهر وتاجاً على مفرق العصر ، ضربت بمكارمهم الأمثال وشدت إليهم الرحال[٣] .

وممَّن رمى بالزندقة فى عهد الرشيد أبو هاشم الحميرى الذى كان يتبع مذهب الكيسانية القائلين بإمامة محمد بن الحنفية[٤] ، وتزعم الكيسانية أن محمد هذا محبوس بجبل رضوى إلى أن يؤذن له بالخروج ، واستدلوا على ذلك بقوله :

ولكن وكل من فى الأرض فان بذا حكم الذى خلق الأناما[٥]

---

(١) ابن كثير ـ البداية والنهاية ١٠/ ١٦٣ .

(٢) الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ٨/ ٢٣٤ ـ وابن كثير ـ البداية والنهاية ١٠/ ١٦٢ .

(٣) الفخري في الآداب السلطانية ص١٩٧ .

(٤) هو أبو القاسم محمد بن علىّ بن أبي طالب ﷺ ، والحنفية أمه وهى خولة بنت جعفر بن قيس ، وقيل : كانت من سبى اليمامة وصارت إلى علىّ ، وقيل كانت أمه لبني حنيفة ـ توفى عام ١٨١ ، وقيل ١٨٣ هـ ، ودفع بالبقيع . (ابن خلكان ـ وفيات ٤/ ٨١) .

(٥) البغدادي ـ الفرق بين الفرق ص٢٩ .

كما كان يقول بالرجعة وما يدل على ذلك ما أورده الأصفهانى أنه قال لرجل ذات يوم تعطينى ديناراً بمائة إلى الرجعة .. قال نعم إن وثقت لى أنك ترجع إنساناً فقد ترجع كلباً أو خنزيراً فيضيع مالى(١) .

كما اشتهر بالزندقة هشام بن الحكم وكان مولى لبنى شيبان ، ولكن بعد أن اشتهر أمره أصبح من أكبر رجال الشيعة فى علم الكلام .

وقد ضل هشام بن الحكم ضلالاً بعيداً عندما قال بالتجسيم والتشبيه فى حق الله سبحانه ، فزعم أن معبوده جسم ذو حد ونهاية وأنه طويل عريض عميق وأن طوله مثل عرضه وعرضه مثل عمقه .

كما زعم أيضاً أنه نور ساطع كالسبيكة الصافية من الفضة وكاللؤلؤة المستديرة من جميع جوانبها ، وقال أنه ذو لون وطعم ورائحة وغير ذلك من الضلال والخرافات التى ذكرها الأئمة فى الملل والنحل(٢) .

ويورد ابن قتيبة عنه بعض المواقف المنسوبة إليه ، فتجد فى بعضها ما يدل على إسلامه مع قلة الدين ، وبعضها يدل على ضلاله وسفاهته ، فمثال الأول ما حكاه ابن قتيبة عن رجل ملحد جاء إلى هشام فقال له : أنا أقول بالاثنين وقد عرفت إنصافك فلست أخاف مشاغبتك ، فقال له هشام : حفظك الله هل يقدر أحدهما أن يخلق شيئاً لا يستعين بصاحبه عليه ؟ قال نعم ، قال هشام : فما ترجو من الاثنين واحد خلق كل شىء أصح لك ، فقال : لم يكلمنى بهذا أحد قبلك(٣) .

أما ما يدل على ضلاله وسفاهته وزندقته أن رجلاً قال له ذات يوم : أترى الله عز وجل فى فضله وكرمه وعدله كلفنا مالا نطيق ثم يعذبنا ؟ فقال هشام قد والله فعل ولكننا لا نستطيع أن نتكلم(٤) .

وسواء قال هذا الكلام على سبيل التملح والفكاهة أو عن عقيدة وعزم فكلاهما يدل على استخفافه بأمور تتعلق بأصول العقيدة الصحيحة ، ومن ثم

---

(١) الأغاني ٧/ ٢٣٦ .

(٢) الشهرستاني ـ الملل والنحل ١/ ١١٨ .

(٣) عيون الأخبار ٢/ ١٥٤ .

(٤) المصدر السابق ٢/ ١٤٢ ، وابن عبد ربه ـ العقد الفريد ٢/ ١٣٢ .

تخرجه من دائرة الإسلام .. ويحكى عنه أيضاً قوله بين الله وبين الأجسام المحسوسة تشابه من بعض الوجوه ولولا ذاك ما دلت عليه(١) .

وعلى كل حال فإنه ظل على قيد الحياة يكابد آلامها لم تثبت عليه جريمة الزندقة إلى أن وافته المنية عام ١٩٠ هـ .

الزنادقة فى عهد الأمين (١٩٣-١٩٨ هـ)

أما عن الزنادقة فى عهد الأمين فلم تفصح المصادر عن أى نوع من أنواع المصادمات أو الاضطهاد فى عهده ، ولعل ذلك يرجع إلى انصراف جهود المهدى إلى تصفية الخلاف الذى وقع بينه وبين أخيه المأمون على الخلافة وهى الفتنة التى فرقت المسلمين وأضعفت قوتهم وقوضت كثيراً من معالم مدينة بغداد حاضرة الإسلام وكعبة العلوم والآداب .

وإن كان هذا لا يجزم جزماً تاماً بعدم وجود زنادقة خلال تلك الفترة ، حيث لا يخل عصر من عصور الخلفاء من وجودهم ولكن ظهورهم كان يقل ويكثر على حسب سياسة الخليفة ومدى تفرغه ، أو إنشغاله فيما يخص الدولة من الشئون الداخلية أو الخارجية ، ولكن انعدام وجودهم تماماً فى فترة من فترات العصر العباسى الأول أظنه أمراً من الصعوبة بمكان .

وعلى كل حال فإن العابثين بالآداب الاجتماعية والمستهترين بتعاليم الإسلام وقيمه تراهم فى كل زمان ومكان ولاسيما الشعراء والمجان وأصحاب الأهواء ، ومن أشهر من رمى بالزندقة فى عصر الأمين أبو نواس الحسن بن هانى أحد فحول شعراء العرب الذى تجرأ على أوامر الشرع الحكيم واستخف ببعض تعاليمه ، إلى جانب إتيانه المنكرات وارتكاب المعاصى والمنهيات ، فكان يعاقر الخمر ويمدح شاربيها ويتغزل بالجوارى والغلمان ويقول فيهم الشعر الخليع الذى ينضح بالعهارة والدنس .

فأنت عندما تتصفح شعره وتاريخه وتطالع ديوانه وأقواله ترى فيها مزيجاً من الأقوال والأشعار وخليطاً من الطباع والأغيار ترى فيها الشعر الجد

---

(١) البغدادي ـ الفرق بين الفرق ص٤١ ، والأشعري ـ مقالات الإسلاميين ١/ ١٢٥ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط. الأولى ١٩٥٠ م .

المليح الذى يشهد لقائله بالاعتدال فى الذوق والأدب ، كما ترى فيها الشعر الماجن الخليع الذى يشهد لقائله بالإسراف فى الفجور والترف ، فهو إذاً مختلف النزعات مزدوج الشخصية حاد الطباع ، تشعر بهذا التناقض كله عندما تقرأ له شعره .

فأبو نواس كان من الندماء الذين يعاقرون الخمر ويخالطون شاربيها ويؤثرون مجالسهم على كل شيء ، ومن شعره فى الخمر قوله :

الا فاسقنى خمراً وقل لى هى الخمر ولا تسقنى سراً إذا أمكن الجهر

وقوله :

اسقنيها يا ذفافة مزة[١] الطعم سلافه
ذل عندى من جفاها لرجاء أو مخافة
مثل ذلت وضاعت بعدها دون الخلافة[٢]

فلما رفع هذا الشعر إلى المهدى أمر بحبسه ثلاثة أشهر ثم دعا به وعنده بنو هاشم وغيرهم ودعا بالسيف والنطع يهدده بالقتل فأعطى أبو نواس عهداً ألا يذوقها مرة ثانية وأنشد يقول :

أيها الرائحان باللوم لوما لا أذوق المدام إلا شميما

فقال له المهدى : إن شربتها قال دمى لك حلال يا أمير المؤمنين فأطلقه فكان أبو نواس يشمها ولا يشربها .

كما كان سليق اللسان بذيء الكلام قبيح السيرة مذموم الأفعال والأعمال كثير الهجاء ، فهو لا يستعظم أحداً على الهجاء ، لهذا هجا قريشاً فى قصيدته التى يقول فيها :

أما قريش فلا افتخار لها إلا التجارات من مكاسبها
وأنها إن ذكرت مكرمة جاءت قريش تسعى بغالبها
إن قريشاً إذا هى انتسبت كان لها الشطر من مناسبها[٣]

---

(١) المز ـ الشراب الذي طعمه مابين الحلو والحامض أو خليطاً منهما .

(٢) الجهشياري ـ الوزراء والكتاب ص٢٩٥ .

(٣) الطبري ـ تاريخ الرسل ٨/ ٥١٤ .

فلما بلغ ذلك الرشيد أمر بحبسه فظل محبوساً حتى ولى المهدى وكان أبو نواس كثير المدح له فبعث إليه يقول :

تذكر أمين الله والعهد يذكر ... مقامى وأنشاديك والناس حُضر
ونثرى عليك الدر يادر هاشم ... فيامن رأى دُراً على الدر ينشر
أبوك الذى يملك الأرض مثله ... وعمك موسى عدلُه المتخير

فلما بلغ المهدى قوله أمر بإخراجه من السجن وخلى سبيله وجعله من ندمائه(١) .

ولكن سرعان ماعاد إلى السجن مرة ثانية بعد أن هجا الخليفة المهدى بقوله :

ولا يطمعن فى ذاك منى طامع ... ولا صاحب التاج المحجب فى القصر

فبعث إليه المهدى وأحضره بين يديه وراح يسبه بأقبح السب والشتم ، وشهد عليه سليمان بن أبى جعفر أنه من كبار الثنوية .

فقال المهدى : هل يشهد بذلك شاهد ؟ فاستشهد جماعة فشهدوا عليه فشهد بعضهم أنه شرب فى يوم مطير وكان قد وضع قدحه تحت السماء ليقع فيه القطر ، وقال أبو نواس : يزعمون أنه ينزل مع كل قطرة ملك فكم ترى أنى أشرب الساعة من الملائكة ثم شرب مافى القدح ، فأمر المهدى بحبسه مع قوم كانوا يتهمون بالزندقة(٢) .

كان أبو نواس واسع الحيلة كثير المكر مع القدرة على دفع الشبهة عنه ، فقد ظل بالسجن إلى أن مرَّ عليه أحد المتعهدين بأهل السجون فقال له : ياهذا أنت زنديق .. فقال أبو نواس : معاذ الله ، فقال له لعلك تعبد الشمس ، فقال إنى أتجنب الجلوس فيها بغضاً لها ، فقال له لعلك تعبد الكبش ، فقال لاأنا آكله بصوفه ، قال فبأى جرم حبست ؟ فقال لأنى أنام خلف الناس(٣) ، فسعى له الرجل عند الفضل ابن الربيع ليشفع له عند الخليفة بالعفو(٤) .

---

(١) الطبري - تاريخ الرسل ٨/ ٥١٦ . (٢) الجهشياري - الوزراء والكتاب ص٢٩٦ .

(٣) كان أبو نواس من شذاذ الناس المنحرفين الغارقين فى الإباحية والغى والذين يعانون من المرض المنحط الخبيث فهو يعشق الجمال فى الأنوثة والذكورة ويتغزل بالاثنين معاً إلى درجة كبيرة .

(٤) المصدر السابق .

ويذكر ابن كثير أن المهدى أحضر أبا نواس وقال له : أنت زنديق .. فقال يا أمير المؤمنين لست بزنديق وأنا أقول :

أصلى الصلاة الخمس فى حين وقتها ... وأشهد بالتوحيد لله خالصاً
وأُحسن غسلى إن أصبت جنابة ... وإن جاءنى المسكين لم أك مانعاً
وإنى وإن حانت من الكأس دعوة ... إلى بيعة الساقى أجبت مسارعاً

فلما انتهى من قصيدته أمر له الخليفة بجائزة(١) .

كما ينقل عنه تعلقه بجارية حسناء أفنى عمره فى الحصول عليها فلم يوفق فى ذلك(٢) .

وبالرغم من دفع التهمة عنه بأنه زنديق فمع ذلك كان يردد قوله :

وقد ألقيت عنى ثياب الردى ... وخضت بحوراً من المنكر(٣)

وكان يقول :

يا ناظراً فى الدين ما الأمر ... لا قدر صح ولا جبر
ما صح عندى من جميع الذى ... تذكر إلا الموت والقبر

كل هذه الأشعار والأقوال المتضاربة والمتناقضة فى الأمور كانت تصدر عن أبى نواس عن عمد أو بغير عمد ، وهى أقوال كما تراها بعضها يدل على ضعف عقيدته وقلة الدين عنده وتدعو إلى الشك والريب فى دينه ، وبعضها الآخر يدل على إيمانه وصحة إسلامه مما جعل المؤرخون يختلفون فى الحكم عليه ويذهبون فيه كل مذهب .

فابن كثير يقول أنهم ذكروا له أموراً كثيرة ومجوناً وأشعاراً منكرة وله فى الخمريات والقاذورات والتشبب بالمردان(٤) والنساء أشياء بشعة شنيعة ، فمن الناس من يفسقه ويرميه بالفاحشة ، ومنهم من يرميه بالزندقة ، ومنهم من يقول أنه يخرب على نفسه .. والأول أظهر لما فى أشعاره ، فأما الزندقة

---

(١) ابن كثير ـ البداية والنهاية ١٠/ ٢٣٨ .

(٢) الأصفهاني ـ الأغاني ٢٠/ ٤ .

(٣) ديوان أبو نواس ، تحقيق المستشرق إيفالد قاعور ٣/ ١٦٣ .

(٤) المردان ـ مفردها أمرد وهو الغلام الذي لم ينبت له شعر فهو أملس .

فبعيدة عنه ولكن كان فيه مجون وخلاعة كثيرة وقد عزوا إليه فى صغره وكبره أشياء منكرة الله أعلم بصحتها(١) .

ويرى البعض أنه لم يكن زنديقاً بالمعنى المعروف من حيث القول بالتناسخ وبالاثنين وإباحة الفروج والأموال وتحليل الحرام وتحريم الحلال ، كما أنه فى الوقت نفسه لم يكن مسلماً بحيث يرعى حرمة دينه ويطبق تعاليمه ، إنما كان مثالاً للمستهتر الفاسق ، ولهذا أباح لنفسه إتيان المنكرات على سبيل المجون والمزاح(٢) .

وإذا كانت الأعمال بالخواتيم من حيث الخير أو الشر ، فقد نقل عن أبى نواس قوله فى مرضه الأخير :

تعاظمنى ذنبى فلما قرنته ... بعفوك ربى كان عفوك عظماً

ومازلت ذا عفو عن الذنب لم تزل ... تجود وتعفو منه وتكرما

ولولاك لم يقدر لابليس عابد ... وكيف وقد غوى صفيك آدما(٣)

ونقل عنه غير ذلك كثير ، وصفوة القول أن أبا نواس كان من جملة الشعراء المتهمين بالزندقة نظراً لإسرافه فى الترف والشراب ومخالطة الغلمان وتعلقه بالنساء ، ومع ذلك فلم تتوفر الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة التى تقطع بالدلالة فى الحكم عليه وقد يرجع ذلك إلى أن الأمور العقائدية تتعلق بالباطن فهى من السرائر ، وإن كانت الأعمال تدل عليها إلا أن الحكم فيها من الصعوبة بمكان .

ولهذا كان المتهم بالزندقة يختبر أمام الخليفة للتأكد من صحة ما نسب إليه وهذا الاختبار عبارة عن إظهار البراءةمن مانى ومن مذهبه ويؤتى بصور مانى ويأمر الخليفة المتهمين بالزندقة أن يتفلوا عليها فإن أبوا قتلوا ، وكان أبو نواس ممن خضع لهذا الاختبار فى عصر الرشيد بعد أن حامت حوله الشبهات وبلغ الرشيد أنه يعبث فى صلاته ويمزح(٤) فأحضره وأحضر معه

---

(١) ابن كثير - البداية والنهاية ١٠/ ٢٤٠ .

(٢) طه حسن حماد - الزندقة في العصر العباسي ص٢٠٢ .

(٣) ابن كثير - البداية ١٠/ ٢٤١ .

(٤) المسعودي - مروج الذهب ٣/ ٣٠٥ .

صاحب الزنادقة ، فقال صاحب الزنادقة للرشيد ويحك إنه وقع فى نفسى منه شيء فامتحنه ، فخط له صورة مانى وأمره أن يبصق عليها ، فأهوى أبو نواس ليقيء عليها فقال صاحب الزنادقة : قلت لك يا أمير المؤمنين فأمر الرشيد بأن يؤدب ويطلق سراحه(١) .

وهذا يؤكد رأينا فى أبى نواس أنه كان فاسقاً فاجراً مستخفاً بأمور دينه فهو صورة سيئة للمسلم الضعيف ، أما الحكم عليه بالزندقة فليس لنا إلى هذا الحكم من سبيل لعدم توافر الأدلة التى تقطع بالحكم عليه .

الزنادقة فى عصر المأمون (١٩٨-٢١٨هـ)

يعد الخليفة المأمون من أفضل الخلفاء العباسيين ومن أعقل الرجال وعظمائهم ، يصفه المؤرخون بأنه من أفاضل بنى العباس فى العلم والحكمة والحلم والفطنة والكرم(٢) .

ولهذا كانت أغلب أوقاته يقضيها فى مدارسة العلم ومناظرة العلماء ، فهو يحب الكتب ويحب الفلسفة والجدل فى المسائل الدينية والقضايا الفقهية ويدعو إلى الحوار الهادىء والمناقشة البناءة المثمرة التى تطلب الحق وتدعو إليه وترغب فيه . كما كان يلجأ إلى الاقناع فى الجدل والمناقشة مع المخالفين له من المتكلمين والزنادقة وغير المسلمين ، كما كان يقبل آراء المتناظرين إذا لم تتفق مع آرائه وميوله شريطة ألا تخرج عن حدود الشرع الحكيم .

ومن هنا اتخذ أسلوب الحوار والمناقشة مع الزنادقة والمرتدين فى عصره حتى يلزمهم الحجة وبعدها يرى فيهم رأيه .

يصرح المسعودى : أن المأمون بلغه خبر عشرة من الزنادقة ممن يذهبون إلى قول مانى ويقولون بالنور والظلمة من أهل البصرة ، فأمر بحملهم إليه بعد أن سموا له واحداً تلو الآخر فجاء الموكل بهم وقيدهم لينتقل بهم إلى بغداد حيث مقر الخليفة ، فلما وصلوا وأدخلوا على المأمون جعل يدعوهم

---

(١) طه حسن ـ الزندقة في العصر العباسي ص ٢٠٠ .

(٢) ابن طباطبا ـ الفخري في الآداب السلطانية ص٢١٦ ، وأبو حنيفة الدينوري ـ الأخبار الطوال ص٥٨٥ .

بأسمائهم رجلاً رجلاً فيسأله عن مذهبه فيخبره بالإسلام فيمتحنه ويدعوه إلى البراءة من مانى ويظهر له صورته ليتفل عليها ويتبرأ منه ، فمن أبى قطع بالسيف نصفين(١) .

وكان من شيم المأمون أنه كان لا يعاقب لمجرد الاتهام ، بل كان يدعو المتهم إلى ساحته ويناقشه فى أفكاره وعقيدته فربما عرضت له شبهة أو التبس عليه أمر من الأمور وربما كان ضحية لمؤامرة ضده قام بنسج خيوطها شياطين الجن والإنس للإيقاع به عند الخليفة ، كان المأمون يضع فى ذهنه كل ذلك ، ولهذا كان يحاور المتهم قبل إنزال العقوبة به ، وكان القتل نصيب من يصر على الكفر والإلحاد .

دخل عليه مرتد ذات يوم كان من خراسان ، فقال له المأمون : لأن أستحييك بحق أحب إلىّ من أن أقتلك بحق ولأن أقبلك بالبراءة أحب إلىّ من أن أدفعك بالتهمة فقد كنت مسلماً فأخبرنى ما الذى أوحشك مما كنت به آنساً من ديننا ؟ فإن وجدت عندنا دواء لدائك تداويت به وإن أخطأك الشفاء كنت قد أبليت العذر فى نفسك ولم تقصر فى الاجتهاد لها وقتلناك بالشريعة فقال المرتد : أوحشنى كثرة ما رأيت من الاختلاف فى دينكم فقال المأمون : لنا اختلافان .. أحدهما اختلافنا فى الآذان وتكبير الجنائز وصلاة العيدين والتشهد والتسليم من الصلاة ووجوه القراءات واختلاف وجوه الفتاوى وما أشبه ذلك ، وهذا ليس باختلاف وإنما هو تخيير وتوسعة وتخفيف من السنة ، فمن أذن مثنى وأقام مثنى لم يأثم ومن ربع لم يأثم . والاختلاف الآخر : كاختلافنا فى تأويل الآية من كتاب الله وتأويل الحديث عن نبينا مع اجتماعنا على أصل التنزيل واتفاقنا على عين الخبر فإن كان أوحشك هذا فينبغى أن يكون اللفظ بجميع التوراة والإنجيل متفقاً على تأويله كما يكون متفقاً على تنزيله ولا يكون بين اليهود والنصارى اختلاف فى شىء من التأويلات ولو شاء الله أن ينزل كتبه مفسرة ويجعل كلام أنبيائه ورسله لايختلف فى تأويله لفعل ولكنا لم نر شيئاً من الدين والدنيا وقع إلينا على الكفاية إلا مع طول البحث والتحصيل والنظر ، ولو كان الأمر كذلك لسقطت البلوى والمحنة وذهب التفاضل والتباين .

---

(١) مروج الذهب ومعادن الجوهر ٤/ ١٠ .

ولما عرف الحازم من العاجز ولا الجاهل من العالم وليس على هذا بنى الله الدنيا ، فقال المرتد : أشهد أن لا إله إلا الله وأن المسيح عبد الله وأن محمداً صادق وأنك أمير المؤمنين حقاً(١) .

هذا نموذج طيب للحوار النافع المفيد الذى حفظه لنا التاريخ الإسلامى ، إنه الحوار الهادىء الهادف الذى يجمع الناس على اختلاف دياناتهم ويقرب بين وجهات النظر المختلفة والآراء المتعارضة للتوصل إلى حلول مرضية تكفل للجميع أن يعيش فى أمن وأمان ، مع إتاحة الحرية الدينية لغير المسلمين .

ونحن الآن وفى هذه الفترة الراهنة أحوج ما نكون إلى لغة الحوار الهادىء البناء سواء كان هذا الحوار بين جماعة المسلمين أنفسهم أو كان بينهم وبين غيرهم من أصحاب الديانات الأخرى ، فالحوار فى كل الاتجاهات نافع ومفيد .

وفى إطار محاورة المأمون للزنادقة والملحدين وأهل الأهواء قال للرجل الثنوى الذى عنده ، وكان يحاوره ، قال له أخبرنى عن قولك بالاثنين .. هل يستطيع أحدهما أن يخلق خلقاً لا يستعين فيه بصاحبه ؟ قال نعم .. قال : فما تصنع بالاثنين ؟ واحد يخلق كل شىء خير لك وأصح(٢) .

وكثيراً ما لجأ المأمون إلى الحوار كوسيلة فى فض النزاع أولهداية ضال أو إرشاد حائر ، والحوار أنفع ما يكون فى القضايا الشائكة والتى يكون الفصل فيها من الصعوبة بمكان ، ومن الحوارات التى فصل فيها المأمون بحكمة وفطنة حوار دار بين مسيحى ومسلم ، فلما رفع إليه هذا الحوار أمر بإحضار كل من المسلم والمسيحى وقرأ كل منهما رسالته عليه ولم يزل صامتاً حتى انتهى كل منهما من حديثه ثم قال أما النصرانى فلا حجة لنا عليه لأن الأمر لو لم يكن عنده هكذا ما قام على دينه والدين دينان .. أحدهما : دين الدنيا ، والآخر : دين الآخرة ..

أما دين الدنيا فدين المجوس وماجاء به زرادشت ودين الآخرة فهو دين

---

(١) الجاحظ ـ البيان والتبيين ٣/ ١٥٨ ، وابن عبد ربه ـ العقد الفريد ٢/ ١٣١ .

(٢) ابن عبد ربه ـ العقد الفريد ٢/ ١٣١ .

النصارى وما جاء به المسيح عليه السلام . وأما الدين الصحيح فهو التوحيد الذى جاء به صاحبنا محمد ﷺ فإنه الدين الجامع للدنيا والآخرة[١] .

وقد أثمرت هذه المناظرات والحوارات التى كان يعقدها المأمون فى حضرة العلماء فقل الزنادقة وأصحاب الأهواء والملحدة فى عصره وندر وجودهم فلم يتهم بالزندقة فى عصره إلا اثنين .. الأول يسمى أبو على والآخر يزدان بخت .

أما أبو على هذا فقد ناظره المأمون بنفسه حتى أقام عليه الحجة والدليل على بطلان ماهو عليه ثم تركه[٢] .

ثم قام باستدعاء (يزدان بن بخت) من الرى بعد أن أمنه على نفسه ، فلما حضر بين يدى المأمون وحاوره المتكلمون حتى سكت ، فقال له المأمون أسلم يايزدان بخت فلولا ما أعطيناك إياه من الأمان لكان لنا ولك شأن ، فقال له يزدان بخت : نصيحتك يا أمير المؤمنين مسموعة وقولك مقبول ولكنك لست ممن يجبر الناس على ترك مذاهبهم ، فقال المأمون أجل وكان أنزله بناحية المحرم ، فوكل به حفظة يحمونه من الغوغاء حتى يصل إلى بلده[٣] .

أما لماذا ترك المأمون هذين الزنديقين بدون عقاب بعد أن أقام عليهما الدليل على بطلان ما يعتقدون .

ففى رأينا أن هذا التصرف يرجع إلى تقدير المأمون للأمان الذى منحه لهما قبل استدعائهما إلى ساحته والوفاء بالوعد من أخلاق الصالحين .

الزنادقة فى عصر المعتصم (٢١٨-٢٢٧هـ)

ليس من شك أن الزندقة قد تفشت وانتشرت خلال العصر العباسى الأول حتى أصبحت ظاهرة واضحة للعيان ، ويرجع ذلك كما سبق أن أشرنا إلى وجود العناصر الفارسية التى سيطرت على أكثر منافذ الحكم والإدارة فى عصر الفرس قديماً ثم ظهرت بعد ذلك المانوية بكل فرقها ، فلما جاء

---

(١) القسيس چورج تركار - حوار مسيحي ومسلم ص٢٢ .

(٢) الجاحظ - الحيوان ٤/ ١٣٢ ، وابن عبد ربه - عيون الأخبار ٢/ ١٣٢ .

(٣) ابن النديم - الفهرست ص٤٥٨ .

المعتصم كانت الدولة تموج بالفتن والقلاقل والأخطار تحيط بها من كل جانب وذلك بسبب نشوب كثير من الحركات الثورية الهدامة التى قام بها الفرس فى خراسان وأذربيجان وغيرها ، وكان أشد هذه الحركات قوة وأكثرها خطراً الحركة الخرّمية التى تزعم قيادتها بابك الخرمى والتى تُعد حلقة فى سلسلة العداء الذى كانت تضمره الفرس للعرب عامة وللإسلام بصفة خاصة ، وماكاد المعتصم ينتهى من هذه الحركة البغيضة حتى أسلمته الأقدار إلى التصدى لمؤامرة أشد وأعنف من سابقتها وهى مؤامرة الأفشين[١] قائد جيوش المعتصم ورأس الزنادقة ومحرك الفتن ومنبع الثورات التى قامت فى جسم الدولة العباسية آنذاك ، ولهذا أطلق المؤرخون على عصر المعتصم عصر فتوح وحروب[٢] .

إلا أن العمل الذى أرهب الزنادقة فى عصر المعتصم وألجأهم إلى التستر والاختفاء هو كشف مؤامرة الأفشين وتقديمه للمحاكمة فى محكمة علنية أمام رجال الدولة جميعاً والتى انتهت بسجنه ثم قتله وحرقه مع أصنامه التى يتقرب إليها من دون الله عز وجل وكان ذلك فى عام ٢٢٦ هـ[٣] .

الزنادقة فى عصر الواثق (٢٢٧-٢٣٢ هـ)

انتقل الزنادقة فى عصر الواثق من طور الخفاء والتستر إلى طور الظهور والعلانية ، فبعد أن كانوا مستترين فى عهد المعتصم بسبب ما أنزله برؤسائهم من البطش والعقاب عادوا إلى الظهور مرة أخرى وأخذوا فى الكيد للإسلام وأهله ، إذ لم يكن الواثق مثل أبيه فى القوة والبأس ولا فى تعقب الزنادقة وأهل الأهواء ، إذ كان مثل عمه فى الشغف بالعلم والحكمة ، والوقوف على آراء العلماء والحكماء ومناظرتهم ، وكان عادلاً فى رعيته متشدداً لآراء المعتزلة من حيث القول بخلق القرآن إلى حد أنه قتل أحمد بن نصر بن

---

(١) انظر مؤامرة الأفشين الفصل الثالث من الباب الثالث من هذا الكتاب .

(٢) ابن طباطبا ـ الفخري في الآداب السلطانية ص٢٢٩ .

(٣) انظر الملحق رقم ١ .

مالك لأنه لم يوافقه على القول بخلق القرآن[١] ، والصحيح أنه غير مخلوق[٢] .

بدأ الزنادقة في الافصاح عن مكنون أنفسهم في عصر الواثق وأخذوا في إذاعة أفكارهم الهدامة وعقائدهم الفاسدة التي تبيح المحرمات وتعبث بالآداب والقيم الإسلامية وتعرض الحياة للإنهيار .

ومن بين الزنادقة الذين صرحوا بآراء فاسدة وخطيرة (أحمد بن خابط) القدري الضال المضل الذي قال بالتناسخ وزعم أن للخلق ربين وخالقين .

أحدهما : قديم وهو الله سبحانه ..

والآخر : مخلوق وهو عيسى بن مريم .

وزعم أن المسيح ابن الله على معنى دون الولادة ، كما زعم أيضاً أن المسيح هو الذي يحاسب الخلق في الآخرة وهو الذي عناه الله بقوله ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ ، وهو الذي يأتي في ظلل من الملائكة وقضى الأمر وإلى الله ترجع الأمور ، وهو الذي خلق آدم على صورته نفسه وذلك تأويل ما روى أن الله تعالى خلق آدم على صورته ، وزعم أنه هو الذي عناه النبي ﷺ بقوله « ترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر »[٣] ، وغير ذلك من الضلال والكذب والتأويلات الباطلة الفاضحة التي نقلها عنهم أئمة الملل والنحل لمعرفة ضلالهم وسفاهة عقولهم[٤] .

وكان أحمد بن خابط وفضل الحدثي من أصحاب النظام في الاعتزال[٥] وقد أطلعا على كتب الفلاسفة ، وزاد في ضلال هذين الزنديقين أنهما أضافا

---

(١) المسعودي - مروج الذهب ٤/ ٧٦ ، والطبري - تاريخ الرسل ، والملوك - ...

(٢) انظر الإبانة عن أصول الديانة - لأبي الحسن الأشعري ١/ ٦٣ تحقيق : فوقية حسين - دار الأنصار ط. أولى سنة ١٩٧٧ م .

(٣) اخرجه الإمام البخاري في تفسير سورة ق ٦/ ١٧٣ .

(٤) البغدادي - الفرق بين الفرق ص١٦٦ ، والشهرستاني - الملل والنحل ١/ ٦٦ .

(٥) النظام هو إبراهيم بن يسار بن هانيء النظام ، سمي بذلك لأنه كان ينظم الخرز في سوق البصرة وهو شيخ الجاحظ ، قرر مذهب الفلاسفة في القدر وأطلع على كتبهم ونقل مذاهب الثنوية وبدع الفلاسفة وشبه الملحدين في دين الإسلام ، وتوفي سنة ٢٣١ هـ .

إلى مذهب النظام ثلاث بدع :

الأولى : أثبات حكم من أحكام الإلهية فى المسيح عليه السلام موافقة للنصارى على اعتقادهم الفاسد أن المسيح هو الذى يحاسب الخلق فى الآخرة .

الثانية : القول بالتناسخ فزعما أن الله تعالى أبدع خلقه أصحاء سالمين عقلاء بالغين فى دار سوى هذه الدار التى هم فيها اليوم وخلق فيهم معرفته والعلم به وأسبغ عليهم نعمه ، فمن أطاعه فى الكل أقره فى دار النعيم ومن عصاه فى الكل أخرجه من تلك الدار إلى دار العذاب وهى النار ، ومن أطاعه فى البعض وعصاه فى البعض أخرجه إلى الدنيا فألبسه هذه الأجسام الكثيفة وابتلاه بالبأساء والضراء والشدة والرخاء .

الثالثة : حملهما كل ما ورد فى الخبر من رؤية البارى عز وجل على رؤية العقل الأول الذى هو أول مبدع(١) .

فهذان الكافران قاما بمزج كلام الفلاسفة والمعتزلة والقائلين بالتناسخ .

يقول الإمام البغدادى : قد شارك هذان الكافران الثنوية والمجوس فى دعوى خالقين وقولهما شر من قولهم لأن الثنوية والمجوس أضافوا اختراع جميع الخيرات إلى الله تعالى وأضافوا الشرور إلى الظلمة والشيطان ، بينما أضاف ابن خابط والحدثى فعل الخيرات كلها إلى عيسى بن مريم حتى محاسبة الخلق فى الآخرة .

كل هذه الضلالات قال بها هذا الزنديق الكافر وطارت أخباره إلى الخليفة الواثق الذى عهد إلى ابن أبى دؤاد المعتزلى بمحاكمته للوقوف على حقيقة الأمر ، ولكن الموت عاجله سنة ٢٣٢ هـ ، قبل محاسبته .

ثانى الذين رموا بالزندقة فى عصر الواثق هو أبو عيسى الوراق وتلميذه ابن الراوندى ، أما أبو عيسى الوراق فقد صرح ابن النديم بزندقته إلا أنه كان يظهر الإسلام من باب التقية(٣) .

وقد ذكر ابن الجوزى أن أبا عيسى الوراق وابن الراوندى كانا يتوافقان على

---

(١) الشهرستاني ـ الملل والنحل ١/ ٦٦ .

(٢) الفرق بين الفرق ص١٦٦ .

(٣) الفهرست ص٤٥٨ .

الطعن فى القرآن ويدعان عليه التناقض وعدم الفصاحة(١) .

ومن الزنادقة الملحدة ابن الراوندى الذى كان ملازماً للرافضة وأهل الإلحاد فإذا عاتبه أحد من الناس فى ذلك اعتذر بأنه يريد أن يعرف مذاهبهم(٢) .

ويؤكد البغدادى .. أن الراوندية من الروافض الحلولية التى قالت بتناسخ روح الإله فى الأئمة حسب زعمهم(٣) .

ولابن الراوندى عدد من المصنفات التى كتبها بهدف النيل من الإسلام والطعن فيه من بينها كتاب سماه (الدامغ) زعم أنه يدمغ به هذه الشريعة فسبحان من دمغه فأخذه وهو فى شرخ الشباب ، وكان يعترض على القرآن ويدعى عليه التناقض وعدم الفصاحة وهو يعلم أن فصحاء العرب تحيرت عند سماعه فكيف بالألكن(٤) .

وقد صرّح الإمام الأشعرى بأن :

ابن الراوندى على صلة كبيرة بالرافضة ، إذ كان ملازماً لهم فى أغلب أوقاته ، وقد جهر بعداوته للإسلام عندما تصدى للتأليف والكتابة لنصرة الثنوية والدهرية بغية الحصول على المال والنيل من الدين الإسلامى ، وقد صرح الإمام الأشعرى بأن ابن الراوندى وأبا عيسى الوراق قد ألفا كتباً فى الإمامة للرافضة(٥) .

ومن الكتب التى صنفها ابن الراوندى كتاب الزمرد وكتاب التاج فى الرد على الموحدين وكتاب نعت الحكمة فى تقوية القول بالاثنين وكتاب الدافع فى الرد على القرآن وكتاب الفريد ويتضمن الطعن فى بلاغة القرآن وفى معجزات الأنبياء وكتاب الإمامة ويتضمن الطعن على المهاجرين والأنصار ، وغيرها كثير وكلها تنضح بالكراهية للإسلام والطعن فيه(٦) .

---

(١) المنتظم ٦/ ٩٨ .

(٢) ابن الجوزي - تلبيس إبليس ص١١١ .

(٣) الفرق بين الفرق ص١٦٣ .

(٤) ابن الجوزي - تلبيس إبليس ص١١٢ .

(٥) مقالات الإسلاميين ص١٣١ .

(٦) ابن الجوزى - المنتظم ٦/ ٧٨ ، ابو العلاء المعرى - رسالة الغفران ص٤١٢

وكم من زنديق فى قلبه حقد على الإسلام خرج فبالغ واجتهد فزخرف دعاوى يلقى بها من يصحبه وكان غور مقصده فى الاعتقاد الإنسلال من ربقة الدين وفى العمل نيل الملذات واستباحة المحظورات .

بيد أن تتبع سيرة ابن الراوندى علم أنه على جانب عظيم من الإلحاد والزندقة ، وذلك واضح بيّن بحيث لا يخفى هذا الأمر على الناظر العابر ، فضلاً عن الفاحص المتأمل .

وبعـــــــد ..

فإن ظاهرة الزندقة التى ظهرت على الساحة الإسلامية بسبب شيوع الأفكار الهدامة والمعتقدات الفاسدة كانت من أشد وأعنف ما تعرض له المسلمون فى العصر العباسى الأول ، والحق أن هذه الظاهرة كان لها ضحايا كثيرون من الشعراء والكتاب والعلماء اتهموا بها وهم منها براء ، كما كان لها أنصار يروجون لها فى كل مكان وكان عامة المناصرين لها كانوا فرساً وهذا أمر طبيعى لأن الزندقة ترجع فى الأصل إلى المعتقدات الدينية الفارسية من مجوسية ومانوية ومزدكية ، ولهذا كان وجودها بين العرب نادراً .

* * *